الاوضاع الاجتماعية في بغداد عقب الانقلاب العثماني عام 1908

المدرس المساعد : بتول انور علي
batoolanwar1994@uomustansiriyah.edu.iq

من المراحل المهمة في تطور مدينة بغداد الحضاري في التاريخ الحديث والمعاصر هو الانقلاب العثماني في الدولة العثمانية عام 1908 وما عقبه من اعلان الدستور في عام 1909 ،اذ حدثت نقلة اجتماعية وحضارية في بغداد من جراء ذلك منها كما يشير علي الوردي كثرة صدور الصحف وقيام الجمعيات وظ هور الملاهي والمر اقص لاول مرة في حياة بغداد ، ومجيء السينما والسيارة والتلفون وكثير من الامور الاخرى، وعلى ذكر السيارة يذهب لونكريك ان اول سيارة ظهرت في بغداد عام 1908 وكانت قادمة من حلب التي جلبها (حمدي بابان) وقد دهش الناس لرؤيتها ويعتبر الفريق (جاويد باشا) والي بغداد قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى عام 1914 بأنه كان اول من استعمل السيارة خاصة تعود ملكيتها اليه بعد ذلك توالت السيارات الى بغداد فأنشأ اول خط منظم بين بغداد وبعقوبة عام 1914، بالاضافة الى السيارات الخاصة التي كانت تملكها قلة من الافراد المشهورين.

وعلى اثره تغير شكل الادارة ايضا حيث نظمت دواوين الحكومة واخذت بغداد تسير نحو المدينة والعمران، وقامت فيها عدة مدارس رسمية للبنين والبنات وادخلت اللغة العربية في مناهج التدريس بعد ان كانت مقتصرة على اللغة التركية.

بينما يروي عبد الرزاق الحسني انه لم يكن في بغداد عام 1908 اكثر من خمس مدارس واحدة لليهود (الالياس) والثانية للمسيحيين وهي اللاتين وماتبقى للحكومة ولا يدخل في ضمنها الكتاتيب ، وقد قابل اليهود اعلان الدستور في الدولة العثمانية عام 1909 بهتاف ومظاهر الترحيب والارتياح ، وفي عام 1909 انشأت مدرسة للحقوق ويمكن اعتبار هذه المدرسة النواة الاولى للتعليم العالي في العراق.

ويذكر حنا بطاطو ان عدد سكان مدينة بغداد (150) الف نسمة في عام 1908، في حين قدرهم المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون بـ(180) ، ووضع ماسينيون عام 1908 خارطة القسم الشمالي من الجانب الغربي للمدينة ثبت فيها الموقع التاريخية والتلول الاثرية في هذا القسم من المدينة، ووضع ماسينيون خارطة صغيرة ثبت فيها اسوار المدينة بجانبها الشرقي والغربي كم مثبت فيها الحدود المحلات الرئيسة في بغداد الشرقية، وقد نشر هذه الخارطة في بحثه عن اللهجات البغدادية وجاء المسح الدقيق لرسم خارطة بغداد من قبل (رشيد خوجة) عام 1908 الذي كان رئيس ركن في الجيش العثماني وهذه هي احدى خر ائط بغداد المنفصلة في العهد العثماني الاخير والتي تمثل بغداد قبيل الاحتلال البريطاني.

ومن مظاهر التقدم والتطور في المدينة هو اقامة اول مدينة حيو انات فيها، ففي او ائل القرن الحالي دار محمد فاضل باشا الداغستاني والتي تقع مقابل القلعة -المقصود وزارة الدفاع حالياً- وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تظم الاسود والفهود والنمور والدببة وغيرها. وسمح لاهالي بغداد عصر كل يوم خميس بالتفرج على هذا العرض الحيو اني الوحيد في بغداد

وفي عهد الوالي العثماني الفريق ناظم باشا عام 1910-1911 والذي اعتبر (مدحت باشا الثاني) وذلك لكثرة اصلاحاته وهمته العمر انية، ارهب الناس فأمنت السبل وبالتالي شهدت المدينة خلال ولايته نوعاً من الهدوء والامن والاستقرار، وهو من الولاة المصلحين وكان صاحب همة وقرار وجعل للجيش معسكراً خارج مدينة بغداد القديمة واخضعه للتدريب الشاق ومنعهم من الاتيان بأعمال تخل بالامن وذلك بالقضاء على ظاهرة الفرهود في بغداد من خلال دفع رو اتب الجنود المتأخرة لمدينة بغداد وذلك باصلاح بعض الطرق والاسواق وجمع المجانين والمبتلين بالامراض السارية وخصص لكل منها مكاناً خاصاً واجرى عليهم النفقات ونفى المشردين من الغرباء الذين لا عمل جديدة محيطة ببغداد ومن اعماله التي سجلت له هي تنظيم عملية جمع الازبال و الاوساخ من ازقة بغداد الضيقة وذلك بواسطة عربات خشبية بدلاً عما كانت عليه بواسطة الحمير وكذلك امر بجمع الكلاب السائبة للقضاء عليها، وفكر في تسيير شاحنات كهربائية لسحب عربات الترامواي الممتد بين بغداد والكاظمية ولكن الفكرة لم تنفذ، كان يقيم الاستعراضات ويرى التعليم وعلاقته بالاقليات ويلح على هدم الابنية لغرض فتح شوارع جديدة في

بغداد، ومن ضمن اعماله العمرانية انه فتح شارع المستنصر- شارع النهر حالياً – وعبده وكساه بالقار وكان يمثل الطريق الرئيسي في المدينة، ويذكر ان استقامة الشارع المذكور ادت الى الاصطدام بمثابة القنصلية البريطانية والتي كانت تتمتع بامتيازات عن غيرها من القنصليات الاجنبية في بغداد واخذ عدد المستشفيات العسكرية من المستوصفات في الظهور قثد افتتح الوالي ناظم باشا عام 1910 مستشفى (مير الياس) الذي انشاه اليهودي الثري (مير الياهو الياس) خارج باب المعظم- تعرف حالياً بالكرنتينة، ويظهر ان ناظم باشا كان اخر الولاة الاقوياء والمحدثين معاً في بغداد خلال العهد العثماني.

وكان اول من فكر بحماية مدينة بغداد من الفيضانات وما ير افقها من تدمير وتفشي الاوبئة والامراض هو ناظم باشا أنشأ سدة ترابية سميت باسمه لتحمي بغداد من الفيضانات تمتد من شمال المدينة حتى جنوبها وبعد هذا اشهر عمل له في المدينة بصورة عامة حيث حمتها من الغرق ، ومما يلفت النظر ان سدة ناظم باشا هذه انشأت والهدف الوحيد من اقامتها هو حماية المدينة من خطر الفيضانات دون ان يكون لها اي صلة بالدفاع العسكري كما كانت الحال عند إنشاء سور المدينة في العهد العباسي ، غير ان وجود هذا السدة موازية لنهر دجلة وعلى بعد بضعة كليومترات حدد نمو بغداد بشكل طولي ،اما الضفة الغربية في الكرخ فقد كانت محاطة بعدة سداد لا توازي في اهميتها سدة ناظم باشا.

ويصف المهندس الفرنسي (اميل اويليه) مدينة بغداد في بداية عام ١٩١٤ جوه احر من القاهرة ولكنه خال من الرطوبة ومساحتها ثمانية كليو مترات مربعة ويمتد نهر دجلة ع طول امتدادها ويقسمها الى قسمين غير متساويين فيترك خمس عرضها على الشاطىء الايمن ويدعى الكرخ و اربعة اخماس على الشاطئ الايسر ويدعى الرصافة ، وفيما يخص السكان فقد قدر (اوبنهم) عدد سكان مدينة بغداد ب (٢٠٠) الف نسمة منهم (١٥٠) الف مسلمين وببغداد كذلك (٤٠) الف يهودي و (١٠) الف نصراني معظمهم من الكاثوليك و الارمن الكرج اما(كوينيه) فيذهب الى ان عددهم (١٤٥) الف نسمة وذلك قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى .

وكانت الحكومة العثمانية منحت (محمود جلبي الشابندر) في عام ١٩١٢ امتيازاً لتنوير بغداد بالكهرباء وتأسيس تراموای يعل على الكهرباء فيه لنقل الركاب وقد لنقل الركاب وقد حال اندلاع لهيب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ دون تنفيذ المشروع وبسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى اضطر والي بغداد خليل باشا الى فتح شارع سمي (خليل باشا جادة سي) وذلك عام ١٩١٦ ولذلك لضرورة وجود شارع رئيسي يخترق قلب المدينة وكانت متطلبات الحرب سبباً في تنفيذ المشروع الذي قلب حياة بغداد الشرقية راساً على عقب وكانت عامة الناس تسميه (الجادة) اي شارع الرئيسي اذ ليس ببغداد شارع اخر رئيسي.

وعن الاوضاع بغداد في اواخر العهد العثماني عانت المدينة من ظلم وفساد الولاة فهذا الوالي بغداد جمال باشا (١٩١١-١٩١٢) اشتهر بالمخازي والرقص مع زوجك مدير البنك العثماني، واما خليل باشا (١٩١٦-١٩١٧) كان منهمكاً باللذائذ مستسلماً للنساء فقد هام وجداً باحدى المومسات في بغداد فاستولت عليه واستبدت بعقله والهته عن الامر المهم وتبين بعد ذلك ان تلك المومس كانت جاسوسة البريطانية اضافة الى الكوراث الطبيعية كالفيضانات والأمراض والحرائق والمجاعة في الوقت الذي اوشكت به الدولة العثمانية على الانهيار فقد غادرها الاتراك ليلة الحادي عشر من اذار عام ١٩١٧ ودخلها الجيش البريطاني في ضحى يوم ١١/اذار/١٩١٧ بقيادة الجنرال مود